الفصل الثالث عشر

العـــودة

جاءتنا مجموعة صغيرة من رعاة عبيدة من عشيرة جردان خلال النهار للحصول على بعض الماء وأمضت الليل معنا وشاركتنا طعام العشاء. ورجع ابن مدعار قبيل غروب الشمس ومعه تموينات غذائية من خربة آل جدعان كما أحضر معه أيضاً خروفاً. وتأخر العشاء كثيراً بسبب احتياج اللحم إلى وقت الطهي. لذلك تأخرت خطتنا في أن نبعث بقافلة الجمال خلال الليل حتى تصل إلى بوع في اليوم التالي. لا أعلم إن كان بسبب العشاء الجيّد أو الكسل المجرد فلم يبدأ "آل هندي" إلا عند السادسة صباحاً. ولهذا لم يجد الآخرون الاستعجال مناسباً. وعند الصباح تناولت طعام الإفطار بارتياح وكان يتكون من الخبز والبازلاء التي قام بطبخها ابن هضيل كما احتسينا بعض الشاي. وفي الليلة البارحة زارنا أحد الصبية من قرية عبيدة مع والدته وأعطاني زبدية من الحليب. وبعد أن تناولت طعام الإفطار عادني الصبي نفسه وهو يحمل طاسة من الحليب فنفحته هذه المرة جائزة مناسبة.

وبعد فترة وجيزة جاءتني شقيقة الصبي وهي جميلة الوجه. وبعد أن وقفت لفترة وهي تتأمل السيارة ويجول ناظرها داخل المخيم تفحصاً لمحتوياته. ومن المؤكد أنها جميلة الوجه، جيدة البنية ويحتمل أنها تحت الثلاثين من العمر. وكانت تتحدث بأسلوب طيب وبصوت عميق أجّش. وكان الجزء الأسفل من وجهها فقط هو الذي يغطيه النقاب مع وجود حلي فضية ونحاسية كانت تزين أذنيها. وفوق خمارها الأسود كانت تضع عقالاً يتدلى منه سلاسل. وكانت عباءتها تماثل نظائرها التي ترتديها نساء نجد، خشنة ومصبوغة بالنيلة الزرقاء. وخاطبتني قائلة: «هل سترحل اليوم؟» فأجبتها قائلاً: «نعم، سنرحل اليوم قاصدين مكة». وبشيء من الرغبة قالت: «أتمنى أن أذهب معكم إلى مكة» فأجبتها: «لماذا إذن لا تذهبين معنا، سوف آخذك في سيارتي إذا وافق زوجك»، وقالت لي: «كنت متزوجة ولكن الآن طالق» فرددت

عليها: «إذن لماذا لا تتزوجين مرة أخرى؟»، فقالت: «لأنه لا أحد يرغب في الزواج مني»: «ولكن لماذا؟» فقالت لي بالحرف: «بيقولون إني ماني زينة». وعلى أية حال، كانت جميلة المنظر وامتنعت عن مواصلة الحديث في هذا الموضوع واقترحت عليها أن تأخذ موافقة أمها لزيارتها المقترحة إلى مكة. وقد تأكدت إنها كانت واحدة ضمن خمسة عشر طفلاً، عشر بنات وخمسة أولاد، ينحدرون من أم وأب واحد. وأثناء وجودها معي جاءت والدتها لترى عما إذا كان قد أصابها مكروه. وأعطيت هذه الشابة بعض قطع الفضة والملابس كما حصلت والدتها على ريال ومن ثم اختفيتا عن الأنظار.

وعند الساعة التاسعة والنصف (في الخامس من أكتوبر ١٩٣٦م) تحركنا باتجاه الشرق على الجانب الأيمن من وادي الماس الذي ينحدر تدريجياً على يسار خط سيرنا. وتتميز التضاريس في هذه البقعة بأنها عبارة عن سهول غير مستوية تعلوها طبقات خفيفة من الحصى. وبعد مسيرة أربعة أميال تتغير التضاريس إلى كثبان رملية إلى أن نصل المنطقة التي يلتقي فيها وادي الماس بمجرى مياه وادي حلحلان. وعبرنا المجرى الأخير الذي يقع على بعد سبعة أميال من معسكرنا وميلين من نقطة التقائه بوادي الماس. ويتجه هذا المجرى المائي حلحلان ناحية الغرب فالشمال الغربي ثم ينحرف إلى جهة الشمال الشرقي قليلاً عبر روابي عقشة ليتصل بوادي الجوف. وواصلنا المسير باتجاه الشرق فالشمال الشرقي عبر سهل حصوي تتخلله بعض أشجار السرح والأكاسيا حيث لمحنا سرباً من طيور الطيهوج. وأطلقت النار على إحدى هذه الطيور وعند إمساكها اندهشت لكمية المياه المتدفقة من فمها.

وصلنا إلى طرف مجرى وادي الجوف بعد مسيرة ١٢ ميلاً من بئر مسعردة. ومررنا بالعديد من فروع هذا الوادي إلى أن دخلنا غابة كثيفة من شجيرات الأكاسيا التي يتراوح ارتفاعها بين ١٠ إلى ١٥ قدماً. ولدهشتنا وجدنا جمالاً ترعى هذه

الشحيرات مع وجود دعامات الأمتعة على ظهورها واكتشفنا لاحقاً أنها جمالنا. وكانت الساعة الحادية عشر والنصف في وقت قائظ الحر عندما سمح الجمالون -من عشيرة آل هندي- للإبل بأن ترعى وتقتات بعض العلف. واخترنا بعض الأشجار الظليلة لقضاء وقت القيلولة . ووصلت درجة الحرارة عندة الظهيرة إلى ٩٥° لكن كان الجو طيباً تحت ظلال الأشجار. وتناولت طعام الغداء الذي كان يتكون من المانجو واللبن المعلب والبسكويت والشاي وأخلدت بعدها للنوم. وفي حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر تحركت قافلة الجمال التي يقودها أفراد من عشيرة آل هندي. وبعد ثلاث ساعات لاحقة تحركنا في اتجاه مسارهم.

ولم أمض وقتاً طويلاً لأخذ القراءات المساحية للوادي الذي كان يقع باتجاه الشمال الغربي - الجنوب الشرقي عبر مسارنا. وتتميز تضاريس الوادي بوجود رمال ناعمة يتخللها نزر يسير من شجيرات الأكاسيا. ونلحظ أن منظر الأطراف الناتئة من رابية اللوذ يبرز للعيان على يسارنا ويستمر إلى مرتفعات زويرة. ويجدر التنويه أيضاً إلى أن كلا من هنّا والجمرة تظهران للعيان بوضوح ضمن المناطق التي تقع أسفل الأودية في ذلك الاتجاه. وبإلقاء نظرة إلى الأمام باتجاه وادي الجوف والجبال على جانبيه باستطاعتي أن أرى المنطقة الجبلية التي نود بلوغها، وتشمل اللوذ، وقُدام وأم عربي وهي إما أن تكون منفصلة عن مرتفعات اليمن الرئيسة أو منطقة شبه منعزلة. والملاحظ أن المنحدرات الغربية لجبال هذا القسم تنحدر مياهها باتجاه الجوف. ولكن الجزء الأعظم من هذه المياه يتجه شرقاً ليتصل بالقنوات المائية التي تصب في وادي خب الذي يصب في رمال الربع الخالي شمال جبال الريان.

تغيرت التضاريس من سهل حصوي إلى أرض رملية حيث مررنا بمضيق يؤدي إلى منطقة جبلية. وفي طريقنا كنا نلمح بين الفينة والأخرى بعض الغزلان لكن لم نعرها اهتماماً. وعند الساعة الرابعة والنصف وصلت قافلة الجمال التي كانت تقل أمتعتنا بعد مسيرة ١١ ميلاً من مخيمنا. وهناك هضبة العراقيب الطويلة المنخفضة

الارتفاع وهي تقع إلى يسار مسار قافلتنا وخلفها يقع جبل اتكاما الذي ينحدر منه واد باتجاه الجنوب الشرقي ليتصل بوادي الجوف. وبعد فترة قصيرة لعبورنا هذا الوادي وجدنا أنفسنا عند أسفل وادي وسط أحد فروع وادي الجوف حيث بقينا لبعض الوقت. ووصلت إلى هذا الموقع الطلائع الأولى لقافلة الجمال بعد الساعة السابعة مساء مباشرة حيث اجتازت حوالي ٢١ ميلاً في خلال ست ساعات. ويبدو أن وعثاء السفر عبر الصحراء قد جعلت أعضاء الفريق المرافق لي وكأنهم في الستين أو السبعين حيث باتوا يسيرون دونما نظام أو انضباط. أما سعد بن معيلم فيبدو أنه قد فقد السيطرة على نفسه. وكانت معظم الأمتعة الثقيلة على ظهور الجمال. وكان سعد لا يهتم كثيراً بأدلاء قافلة الجمال من عشيرة آل هندي الذين كانوا كثيراً ما يتذمرون من نقص القهوة والسكر بعكس مجموعة النجديين الذين كانوا لا يواجهون أية صعوبة في الحصول على هذه الأشياء التي كانت تعد من الكماليات. وربما كان التضغط النفسي الناجم عن الرحلة الطويلة سبباً لهذا التذمر. وربما كان ذلك يرجع إلى طبيعة العرب فعند اقتراب نهاية عملهم يكونون أكثر انفعالاً.

ووادي وسط في هذه النقطة يبلغ اتساعه نصف ميل في المنطقة الواقعة بين هضبة حجيلة على الضفة اليمنى وأسفل جبال الهضبة العليا. وتنتشر في الوادي الكثير من أشجار الراك والبال والأكاسيا الشوكية. وتكثر في هذا المكان فراشات الصحراء التي كانت تحوم حولنا محدثة أزيزاً وتحاول أن تمتص قطرات المياه المتدفقة من أوعية المياه الجلدية (القِرَبْ) التي بحوزتنا. وفي الصباح الباكر رأيت أسراباً من طائر الشمس القادمة من وادي النيل وهي تحوم حول أغصان وشجيرات الأكاسيا. فضلاً عن ذلك، قمت باصطياد طائر من فصيلة الأبلق (أبو بليق) والذي رأيت مثيله في شبوة وفي مرتفعات العلم عند أقصى شمال نجران.

وقبل أن نستأنف رحلتنا صعدت إلى قمة هضبة حجيلة لعمل مسح للمناطق حولنا ومعظمها أراض جديدة لم نرها من قبل. وفي غضون ذلك تقدمت قافلة الجمال

أمامـا نحو بوع مع تعليمات لإعطاء راحة لجمالنا التي أرهقتها الرحلة الطويلة. وذهب أيضـاً ابن مدعـار إلى عشيرته التي تخـيم بين بوع والشضيف لهذا الأمـر أيضاً. وثمة إشارة هي أننا الآن على ارتفاع حوالي أربعة آلاف قـدم من مستوى سطح البحر وتبلغ درجة الحرارة ليلاً ٨٥° وفي منطقـة آبار بوع التي ترتفع حوالي ٦٠٠ قدم تصل الحرارة إلى ما يزيد عـن ٩١°. ومما لا شك فيه أن هناك فـارقاً كبـيراً في درجـات الحرارة بين الليل والنهـار في هـذه الصـحراء. وهـنا وادي وسط الذي ينحـدر من هضـبـة بوع الجرابيتـية. وعلى مسافة مـيلين ونصف الميل من مخيمنا، يتـصل هذا الوادي بشعيب مسياب من الهضـبة العليا. ومن نفس المسافة السابقة أمام مـوقعنا يوجد وادي حضرة الذي يتشكّل من التقاء كل من مجاري مياه شعـيب عتبات من جهة الشمال - الشمال الشرقي ووادي بوع من جـهة الشمال الغـربي. والوادي الأخير يحـد بجبال ضخـمة ومجراه مليء بالغابات. وهنا وادي أم سلام الذي ينحدر من مرتفعات نصيف العالية. وخلف هذه الهضاب يقع وادي غمير الذي يندمج مع وادي الملاحة ثم وادي أمواه إلى أن ينتهي في الصحراء.

وقبالتنا مباشرة من مكان جلوسنا في قمة هضبة حجيلة، فإن الضفة اليسرى لوادي وسط تتمـيز بوجود مناظر لروابي منخـفضة وجبـال برقاء الضاحي، الدحلات ومـبادي الشريـف، وبين هاتين المجمـوعتين من الجبـال يوجد ممر رمـلي يقود إلى سـهل جو المليس الصحـراوي، ويلاحظ أن هضبـة خسفـة تفصل كلاً من مـجرى وسط ووادي إتكامـا الذي يصل إلى وادي الجوف بمفـرده. وهناك مجـموعـة وادي بحر الشـديدة الانحدار والتي تعد من أكثر المرتفعات الـبارزة في هذه المجموعة الجبلية. وخلف هذه المجموعة (بحر) توجد جبال شـعب الأسود وروابي لبانات الواقعة قرب وادي الجوف وهي تقع مبـاشرة جنوب موقـعنا الحالي في هضبـة حجيلة. ومن هذه المنطقـة أيضاً يمكننا رؤية أراضي سبأ وقمم خَـرَج التوأم ولسان حيلان الصخري الممتـدة نحو البحر فضـلاً عن خربة أبي السـعود ووادي عدوان. وأسـفل روابي الدحلات على الضـفة

الغربية من وادي وسط الذي تحده جبال الهضبة السفلى العالية ورابية الصعرة. وعلى مقربة من جانبيها توجد مرتفعات نصلة حنيش. ولم نستطع أن نرى جبال العلم لكن إلى جهة الشرق مباشرة توجد مرتفعات الضلع، ورقمة، والنسرين والشهلا. وأشار إليَّ ابن هضبان نحو -تقريباً ناحية الشمال الغربي- واحة خب التي تشمل قرى حلى أسفل الوادي. وأقرب قرية بالنسبة لموقعنا هي غيل سبتان أعلى الوادي. ومن جهة أخرى، فإن قرى محجل والمعقر تقع عند أقصى أعلى الوادي بالنسبة لقرى خب. وهناك الحزم في واحة الجوف التي تعد العاصمة الحديثة ومقر الحاكم وتقع باتجاه الغرب - الشمال الغربي بالنسبة لموقعنا الحالي.

كان مسيرنا غير منقطع عدا نصف ساعة قضيناها لإصلاح إطار السيارة. ووادي بوع وعر المسالك حيث تتخلله العديد من كتل الرمال التي تصلب شجيرات الثمام، علاوة على المجاري المائية الموسمية التي يجب أن نعبرها في طريقنا. وهناك العديد من شجيرات المرخ والأكاسيا. وعند اقترابنا من بئر للمياه في هذا المكان وجدنا العديد من الرعاة، رجالاً ونساء، كانوا يعرفون ابن هضبان حيث قدموا لتحيته. ومن جهة أخرى كانوا يحدقون في وجوهنا. ونصبنا خيمنا عند ظل أحد الصخور حيث قام رفاقي بذبح خروفين وسلخهما لوجبة الغداء، واختاروا مكاناً جيداً بعيداً من البئر لنومي. وبعد الظهر وقبل الفراغ من إعداد وجبة اللحم احتسيت كوباً من الشاي لينعشني، ومن ثم ذهبت لإلقاء نظرة على البئر.

ووجدت بعض النسوة قرب البئر وهن يسقين قطيعاً صغيراً من الخراف، فجلست للتحدث معهن. وكانت منهن امرأتان من عشيرة دهم، إحداهما ترضع صغيرها بينما تمد دلواً جلدياً للأخرى التي كانت تمتح الماء من بئر عمقها أربع قامات. ويلاحظ أن تجويف البئر الأسطواني الشكل مضفور بألواح جرانيتية. وضمن هؤلاء النساء كانت طفلتان إحداهما في الخامسة عشرة والأخرى في السادسة عشرة وهما من قريبات ابن مدعار. وسئلت عن سبب عدم حضور ابن مدعار معنا. وأجبت بأنه

حضر معنا هذا الصباح لكنه ذهب إلى أسرته للاطمئنان عليهم. وأعطتني المرأة التي كانت تحمل الطفل حليباً مما دفعني لمنحها وبقية النسوة هبات سخية.

وأثناء تجاذبنا أطراف الحديث جاءني اثنان من مرافقي الجمال من المجموعة النجدية وطلبا مني أن أشتري خروفين. وبرغم اعتراضي في بادئ الأمر على هذا الطلب بحجة أن الوجبة الغذائية قد تم إعدادها الآن وأن الوقت متأخر من الظهيرة، وبرغم عدم اقتناعي بأن المرافقين كانوا يعانون الجوع، إلا أنني رضخت في نهاية الأمر لمطلبهم لاسيما وأنهم عانوا كثيراً في الأيام الماضية. وتم شراء الخروفين بمبلغ ثلاثة ريالات للكل. وعند رجوعي للسيارة أحضر لي لحم مشوي بالصلصة كمقبلات أو وجبة خفيفة ريثما يتم إعداد وليمة لحم الخروف. وفي ذات الوقت قام بقية المرافقين بإعداد وجبة خفيفة لأنفسهم تشمل الكبد والقلب والكرش وأجزاء أخرى من الخروف. ولم أستطع انتظار الوجبة الرئيسة (لحم الخروف) وذهبت يرافقني ابن هضبان إلى الرابية الجرانيتية التي تقع بالقرب من مكاننا لأخذ بعض المعلومات الجغرافية عن المنطقة حولنا. وعند عودتي أحضرت لي وجبة تتكون من رأس خروف وقطعة صغيرة من اللحم وضعت في صحن. لكن رفضت أن آكل بمفردي وانضممت إلى مجموعة المرافقين في الوليمة الجماعية. وبعد برهة بدأ الجميع الأكل. وكان رأس الخروف وقطعة اللحم التي أحضرت لي سابقاً تعتلي كوماً غير شهي من الدخن المطبوخ بصورة غير جيدة. وأثناء الأكل كانت أصابع المرافقين داخل الطبق تدفع يدي يمنة ويسره، وكان الجميع يلتهم الأكل بنهم وشراهة مصطنعة. وعندما فرغ أحد الرجل من الأكل حمد الله وكذلك فعلت أنا. ونظراً لكل المقاييس سيما العربية فإن تصرف بعض جماعتي ينم عن أخلاق سيئة. ومن غير الكياسة تجاهل ذلك. وقد أخطرت سعداً بما أراه عن سلوكه. وكنت آمل أن يكون سوء التفاهم الذي نشأ بيننا جراء هذه المسألة ربما يفضي إلى إصلاح ذات البين ولكن ذهبت آمالي أدراج الرياح.

وربما أكون قد سمحت لهذا السلوك النزق أن ينتشر بين أفراد القافلة. وكيما يكون الحال فإن تراجعنا وتهاوننا أدى إلى تدهور الوضع بسرعة إلى شغب.

وكنت قد قمت بالتعرف على أحوال المنطقة التي حولنا حيث تبين لي أن الجبال عند الجهة الغربية لموقعنا لا تسمح لنا بأخذ صورة بعيدة من هذا الاتجاه. أما ناحية الجنوب، فإن إقليم سبأ لم يكن ظاهراً للعيان. وفي الجهتين الشرقية والشمالية، أمكننا رؤية مرتفعات وعير العالية والتي تقع خلف وادي خب فضلاً عن رؤية الربع الخالي الذي يمثل المد النهائي لإبصارنا من هذا الموقع. وفي هذا الاتجاه يبرز مرتفع الحيض بشكل جلي. وبالنسبة للمظاهر الطبيعية التي تقع على مقربة منا، فأمامنا مباشرة يقع وادي غمير يليه وادي أوبن. وعند الجهة الشرقية للطريق الذي يربطنا بهذه الأودية يوجد سهل السواد الذي تتخلله بعض المنكشفات الصخرية وحولنا توجد دائرة واسعة من الروابي تشمل مورة، خيل، أقطنة، مجراب قمم جبال ستيلة. والشضيف. وداخل هذه الدائرة الجبلية تبرز أعداد هائلة من المرتفعات الجرانيتية تتمثل طويّل وبرادة وصابرين والصعرة والأحمر وصباح وغيرها. ويلاحظ أن مجرى وادي الخلفين يبدأ من فتحة جبلية من مرتفعات نصيف وخرشة ويعبر هذا السهل عرضياً ماراً بمحراب وصابرين إلى منطقة الجو. ونجد خلف أوبن أن سلسلة جبال برم وقمم جبال ساندر (سندر) التوأم وفارح تحدد مجرى وادي سرحان الذي يتصل بمجرى وادي خب عند طرف الصحراء. ولاحظت بعض الكتابات على هيئة مخربشات في وادي بوع الذي يبعد حوالي الميل من البئر. وتشكل هذه المعثورات الأثر الوحيد للوجود الإنساني في هذه المنطقة القاسية والمضيافة في ذات الوقت.

وكان الليل بارداً بصورة تدعو للدهشة حيث وصلت درجة الحرارة إلى ٤٠° فهرنهايت. أما في الصباح الباكر فقد كان الجو منعشاً مع شمس غير مرئية تماماً تنعكس بعض أشعتها على قمم جبال الأحمر في هيئة وردة حمراء ناضرة. ولم يرجع ابن مدعار من مخيم عائلته حتى الساعة التاسعة صباحاً حينما تحركت قافلة الجمال

التي تضم الجمال الجديدة والتي تم تأجيرها لإكمال ما تبقى من الرحلة إلى نجران. ولم يحدد ابن مدعار قيمة إيجار الجمال لكن أصدقاءه رفعوا سعر الإيجار مستغلين احتياجنا الشديد إليها. واقترح سعد مبلغ خمسة ريالات كإيجار معقول لكل من الجمال الثمانية التي نحتاج إليها حتى الوصول إلى نجران. واقترح بقية أصدقائه أن يكون سعر إيجار كل جمل سبعة ريالات ورغم ذلك لم يتخذ ابن مدعار رأياً نهائياً في الموضوع. وتركتهم يقررون ذلك بأنفسهم دون التدخل في هذا الأمر. وقرر المرافقون أن تكون وجبة العشاء لحوم الخروفين التي تم طبخها في الليلة الماضية. وفي نهاية الأمر قمت بنفسي بتسوية موضوع قيمة إيجار الجمال مع أصحابها دون الدخول في جدال مع المرافقين. وعند الساعة الحادية عشرة صباحاً استأنفنا المسير وتسلقنا منطقة جبلية متحدرة تؤدي في نهايتها إلى سهل الأسود وتتخللها الكثير من النصب الركامية. وبعد مسيرة أربعة أميال وصلنا إلى وادي غمير الواقع بالقرب من شمال خرشة ثم قطعناه وتوقفنا لقضاء وقت القيلولة. الذي كان طويلاً على غير العادة، خاصة وأن الجمال ما زالت وراءنا. وبالقرب من معسكرنا وفي وسط الوادي يوجد نبع مائي صخري وقر يسمى مريم. ومن هذه النقطة الصخرية التي نقف عندها أمكنني الحصول على منظر مختلف للجانب الجنوبي الغربي خلف الجبال التي لم يكن من المستطاع الرؤية عبرها من موقعنا السابق.

وينحدر مجرى وادي غمير من المنحدرات الصخرية لشعب الأسود ويجري خلال ممر يفصل بين مرتفعات خرشة نصيف وحبل المركبة والذي يوجد في السهل الواقع أمام نبع مائي يحمل الاسم نفسه. وإلى اليمين من جبل المركبة في الجهة الجنوبية الغربية لموقعنا الحالي يوجد جبل محوة الأسود ومنحدر صخري جرانيتي يسمى شاري، وعلى مقربة منه توجد هضبة ريدان. وعلى يمينها نلحظ جبل سويقة الذي يوجد أمامه نبع مائي يسمى دحيضة وهناك جبال قُدم التي شاهدناها من قبل من جهة الجنوب وهي تفصل هذه السلسلة من الهضاب عن مجموعة أخرى تكوّن

الضفة اليسرى لوادي الجوف، شرجاب مع العديد من المنكشفات الصخرية الجرانيتية تشمل الشهلا والمضرة ومرهينة. وخلف هذه المرتفعات تظهر جبال اليمن التي تتراءى من على البعد دون أن أستطيع تبين معالم واضحة من هذا المكان. وإلى الغرب والشمال الغربي من موقعنا توجد مجموعة هضاب وقمم جبلية تكون خط تقسيم مياه بين الجوف وشعيب أوبن- مفلح مع ثلاث قمم تشمل عارين مع سلسلة الرس، وخالص. ويظهر شعيب أوبن ووادي السرحان في الرس وخالص وهما يستقبلان روافد مائية من المنحدرات الأخرى المشار إليها أعلاه.

وبعد أن قمت بعمل مسح للمنطقة التي حولنا، نزلت إلى الوادي للحاق ببقية رفاقي في مخيمهم الذي أقيم عند شعيب ضحل تغطيه الشجيرات. ووجدت أحد الرجال وقد قام بالقبض على أرنب بري صغير كان ينام تحت ظل أحد الشجيرت وتعج منطقة المعسكر بالطيور من مختلف الأصناف ومعظمها آكل النحل وطائر الصحراء المغني رغم أنني قد وجدت طائر الدغناش في اليوم التالي في وادي أوبن. والهضبة التي اعتليتها لأخذ هذه المعلومات تتشكل من الجرانيت ويغطي سطحها العلوي طبقة بازلتية. وكان أمامنا شعيب حرمان وهو رافد من وادي غمير الذي ينحدر من هضبة ريدان الصخرية الشديدة الانحدار. وواصلنا مسيرنا إلى أن وصلنا سهلاً مستوياً لوادي أوبن. وهذا الوادي يتميز بالشجر الكثيف فضلاً عن أشجار الأكاسيا. وخلف هذا الوادي يوجد مجرى وادي الرس. وتركنا بقية رجالنا في المخيم وانطلقت وبمعيتي ابن هضبان واثنان أو ثلاثة من المرافقين لتسلق كتلة صخرية نائئة من الجرانيت تقع بالقرب من مكاننا وذلك بهدف الحصول على منظر عام للمنطقة من على مرتفع يبلغ ٢٠٠ قدم فوق مستوى سطح الأرض. وكان مدى رؤيتنا يمتد من وراء وادي وعير في الشمال إلى اللوذ والهضبة العليا في الجنوب. وكنا نرى ضوء الشمس الآخاذ خلال المساء وهي تسلط أشعتها على سحابة عظيمة تظهر أطرافها كما لو أنها بركان يصب ناره في الفضاء. وقفلنا راجعين إلى مخيمنا في المساء. ومن المؤكد أن سمعتنا

كأنس نتسم بالشراهة في الأكل قد انتشرت على نطاق واسع. وأبرز دليل على ذلك أنني قبل أن أنزل من سيارتي متجهاً نحو المخيم اتجهت نحوي ثلاثة وفود من عشائر محية وهذه الوفود من بدو دهم وعبيدة وقد طلبوا مني أن أقبل منهم بعض الخراف كهدايا منهم إلينا. وأحد هذه الوفود أحضر بالفعل ستة خراف وبقية الوفود أحضر كل منه خروفين. وقد قمت باحتجاج على هذا الإسراف والتبذير، لكن أصر هؤلاء على قبول الهدايا، بل هدد بعضهم بذبح الخراف أمامي بدلاً من إرجاعها معهم. وبعد جدل طويل اخترت خروفين للعشاء الذي تأخر كثيراً عن موعده، وأعطيت الموفدين هدايا سخية. وفي صبيحة اليوم التالي جاءني صبيان من مخيمات هذه القبائل وهم يحملون حليباً وفي المقابل منحتهم هبة سخية نظير خدمتهم.

وبينما يجري وادي غمير إلى جهة الجنوب من مرتفعات السنبلة التي تحدد مجموعة مناهل الشضيف - العريجا المائية. وفي نهاية المطاف يصبح اسم هذه المجموعة الملاحة -اسم بئر في مجرى الوادي- وتنضم إلى وادي أمواه خلف البقعة التي أمضينا فيه ليلتنا الأولى خارج الشضيف ووادي أوبن اللذين ينضمان لوادي الرِّس المار بين السنبة ومرتفعات حمرة بحرة في اتجاه الشمال حيث يتغير اسمه إلى وادي الطرفاء. وخلف مجرى مياه وادي الرس، دخلنا في بقعة تتشكل من مرتفعات ومنكشفات صخرية من الجرانيت تتخللها بعض النصب الركامية الدائرية التي توحي بأنها آثار لحركة قوافل قديمة . وكما نوهت سابقاً، توجد مثل هذه النصب الركامية في المنطقة الممتدة بين بوع وأوبن. وفي تقديري أن النصب شيدت لتكون معالم بارزة تحدد الطريق بين درب الجوف وواحة خب. ولاحظت وجود نقش مهترئ بالخط العربي الحديث في إحدى هذه المنكشفات الصخرية ويبدو أنه الوحيد من نوعه في هذا الطريق.

وخلف وادٍ واسع ضحل دحل واجهنا عقبة في طريقنا، تتمثل في رابية منخفضة حيث اجتزناها بصعوبة بالغة إلى أسفل وادٍ صغير متعرج يسمى أم الذياب. وتعترض مجرى هذا الوادي الشديد الوعورة أعشاب خشنة وكميات كثيرة من

الشجيرات الصغيرة التي تؤدي إلى أسفله حيث يتصل بوادٍ متسع هو وادي سرحان. والآن نتابع مسيرنا عبر الطبقات الرملية لمجرى الوادي الأخير (سرحان) خلال مجموعات متفرقة من أشجار الأكاسيا والمرخ. وتتصل بعض المجاري الصغيرة (المسيلات) بالوادي من الجانبين وهي تؤدي إلى اتساع الوادي بين رابية مثنة والأطراف الخارجية لهضبة البرم، وتسلقنا الهضبة الأخيرة -على ارتفاع ٤٠٠ قدم- لمسح منظر المنطقة التي حولنا حيث تمكنا من رؤية لمحات عدة لوادي خب على امتداد المنطقة الممتدة من القمم المشرفة على الواحة إلى موقع مخيمنا القديم. وفي جهة الشرق يمكننا رؤية مرتفعات المعو. وفي الجهة الشمالية نشاهد علامات حدود كل من أم الشداد والطويلة.

ونحن الآن في طريقنا إلى الخط الذي يقودنا إلى الطريق الخارجي المؤدي -في الوقت المناسب- إلى معسكرنا القديم في وادي خب. وهنا وهناك يلاحظ آثار السيارات التي عبرت هذا الطريق قبل شهرين إلا أن معظمها قد تلاشى. ومرتفعات أبو داعر التي تقع على اليمين من خط سيرنا ذات لون قرنفلي تحت أشعة شمس الظهيرة في حين أن كثبان قنيفد الموجة الساحرة على يسار الوادي تعكس لوناً برتقالياً ساطعاً. وبينما كنا جالسين في مخيمنا وسط الشجيرات يعترينا شعور الحنين بالعودة للأوطان إذ جاءنا مبعوث من نجران يحمل برقيات من الملك. ويدعى هذا المبعوث الصيعري من عشيرة تسكن في صحراء نجران وكانت لديه تعليمات لا تقتصر فقط على معرفة مكان وجودنا بل أيضاً الرد على البرقيات. ولم تكن تلك البرقيات تتضمن أشياء مثيرة حيث إنها تتعلق ببعض أعمالي التجارية في مؤسستي في جدة. وانتهزت هذه الفرصة وأرسلت مع إجاباتي للبرقية رسالة إلى عائلتي تتضمن مسار رحلتي ونشاطاتي. وكان من المفترض أن تصل رسالتي للعائلة بواسطة أول بريد خارجي لكنها أعطيت إلى عامل اللاسلكي مع البرقيات. ورغم أنه يستطيع قراءة الحروف الإنجليزية الكبيرة، فإن كتابتي بالخط الصغير لم تساعده على قراءة خطابي؛

لذلك أرجعه إليَّ فور عودتي إلى نجران معتذراً عن عدم تمكنه من إرساله إلى لندن. وبما أنه من غير المحتمل أن يكون هناك بريد خلال أسابيع عدة قادمة، فإن ذلك لا يهم بتاتاً.

وبالرغم من زيارتنا إلى بوع فإن امداداتنا من المياه قد تقلصت إلى حد كبير بالرغم من تشككي في أن هذا الوضع ربما يكون ناجماً من عدم رغبة مجموعة أعضاء الرحلة في استعماله لغلي الدخن. وفيما يخص نصيب المجموعة التي ترافقني في سيارتي، فلدي عنز هزيلة كنت قد اشتريتها قبل مغادرتي أوبن وذلك للاحتفاظ بها كاحتياط في الوقت الذي كان فيه بقية أعضاء الرحلة يرون أنها يجب أن تكون مشاعة للجميع في حالة عدم توفر طعام. وأصدرت تعليمات بأن تكون العنز من نصيب أعضاء الفريق المتنقل بالسيارة وبقية المجموعة (قافلة الجمال) يقتصر طعامها على الدخن. ثم تحركت قافلة الجمال التي تحمل الأمتعة في الصباح الباكر للوصول إلى النقطة التي سنلتقي فيها عدا سعد بن معيلم وصاحبه النجدي اللذين بقيا معنا في المعسكر. بيد أنني أمرتهم باللحاق ببقية القافلة تفادياً من أي تأخير في وصولهم إلى مكان اللقاء في منطقة الينابيع في الصيح.

وفي غضون ذلك توفرت كمية من اللحم كافية لعشائي. أما بقية لحم العنز فقد خصص لأعضاء القافلة في المخيم وهم الطباخ ومحنط الحيوانات والسائق وضيوفي وهم: فرج بن قرقاح وصالح بن حزيق وحمد القردعي، وحسن بن هضبان. ويجدر التنويه إلى أن الأخير قد طلب مني مراراً -خاصة في بوع مسعودة- أن أسمح له بترك العمل والعودة إلى أسرته. وعلى أية حال، كان هذا الرجل مهماً للغاية ومصدر قوة للرحة بصورة لا تسمح لي بالتخلي عنه بسهولة. ورغم ذلك فقد وعدته بأن أسمح له بالمغادرة عند وصولنا إلى خب. والآن جاءت اللحظة التي نقول فيها وداعاً لأحد زملائنا الذي قضى معنا سبعين يوماً في هذه الصحاري الموحشة. وقد كنت آسفاً لأقول له وداعاً. وقمت بمساعدة ابن معيلم بتجهيز حسابات ابن هضبان فيما يخص

عمله كمرشد للقافلة وإيجار الجمال. وقد وصلت هذه المستحقات ٤٥ ريالاً وأعطيته فضلاً عن ذلك جنيهين ذهبيين مضاعفاً الهبة. وكان قد حصل أثناء الرحلة في حضرموت على عدة هدايا. وفرح ابن هضبان بهذه الهبات السخية وأمطرني بوابل من الشكر والمديح على هذا الكرم. ومن المؤكد أن ابن هضبان كان أبرز شخصية من المرافقين لي . وفي المرة الأولى التي تعرفنا فيها عليه في الشضيف كان ابنه -مثل بقية أبناء زعماء البدو في اليمن- رهينة في صنعاء لضمان حسن سير وسلوك والده. وعند وصولنا إلى مسعودة أخطرني ابن هضبان أن الإمام يحيى قد سجن ابنه كإيماء إلى عدم رضائه عليه (أي على ابن هضبان) لمرافقتنا في هذه الرحلة. ولم أصدق في ذلك الحين هذه المقولة ولكن منذ ذلك الوقت ترامى إلى مسامعي أن سلوكه يجد ما يبرره في زعمه أنه لا يستطيع أن يرفض طلباً للمساعدة وإكرام الناس الذين يفدون إلى هذه المنطقة من طرف ابن سعود.

وكان ملك اليمن غاضباً من زيارتنا إلى حضرموت حيث كان ينحو باللائمة على كل من السلطات البريطانية وابن سعود. ونفث الإمام حنقه وغيظه على قبيلة دهم وطلب منها إعطاء تفسير لسلوكها وتعاملها الكريم معنا. وتجدر الإشارة إلى أن الذين تلقوا رسالة الإمام من أفراد هذه القبيلة ولإظهار ولائهم له، قرروا ذبحنا فور وصولنا إلى منطقتهم بعد أن يستلموا موافقة خطية منه. ولكن حدث أن تجهلت حكومة الإمام هذا العرض بقتلنا وعلى العكس من ذلك تماماً استقبلنا بكرم رياض عند رجوعنا مثلما كان عليه الحال في زيارتنا الأولى. والآن أتمنى أن يكون جلالته قد اقتنع أن زيارتنا لإقليمه لم تكن بهدف شائن. وكان من نتائج هذه الزيارة الاعتراف بأن هناك حدوداً قبلية في الصحراء تساعد الحكومتين (السعودية واليمنية) لتحديد الحدود بينهما.

وفي هذا الوقت تبعاً للمعلومات الواردة من الصحراء فإن قبيلة يام السعودية تعد القبيلة الرئيسة وسط المجموعات العربية الأخرى التي ترعى مواشيها في المنطقة

الواقعة إلى الشمال من وادي خب. وحلّ جعمل من عشيرة آل هندي مكان ابن هضبان في السيارة في حين أن ابن مدعار أرسل إلى وادي أوبن لشراء تمور بمبلغ ستة ريالات من سوق وادي خب الأسبوعي وسنلتقيه في منطقة الصيح. ولكن ثمة كمية وافرة من اللحوم كانت بحوزتنا بحيث إننا لن نحتاج إلى تلك التمور الجافة كثيراً. واكتشفت لاحقاً أن هذه التمور وما يماثلها يمكن أكلها لو حمصت في النار لأن الحرارة تسيل السكر فيها وتجعلها طرية وبالتالي مستساغة.

وبينما نحن نقترب من خب تجنبنا طريق القوافل بمحاذاة الغور الواقع بين المنطقة الجبلية والكثبان الرملية عن طريق ثغرة دائرية في الأخيرة. وبعد عبورنا للوادي اتجهنا نحو فضاء من الرمال بين كثبان قنيفد وهضبة المضباح الأسود على شمالنا يقع وادي علّوب ووادي العيينة وسلسلة جبال وعير. وهنا وهناك كنا في بعض الأحيان نجتاز العديد من التلال الرملية التي تتناثر فوقها شجيرات العَبَل والأكاسيا وبعض الأعشاب التي يصل ارتفاعها إلى ١٥ قدماً. وفي الطريق التقينا مجموعة من الرعاة من عبيدة قادمين من الشمال للرعي في منطقة خب. وواصلنا مسيرنا عبر وادٍ عريض رملي هو وادي قضقاض المنحدر من هضبة العيينة والتي توجد عند طرفها الأقصى مجموعة كثبان عرق الطريف الرملية. وبعد اجتيازنا لهذه البقعة بدأنا نسير في أرض سهلية صلبة تتخللها تلال العبل وبعدها دخلنا في غابة من أشجار الأكاسيا الشوكية التي تمثل الضفة اليمنى للجانب الشرقي لوادي (عتمة). وهذه المنطقة ذات طبيعة معروفة. وأصبح بإمكاننا الآن الحصول على منظر واضح للصحراء الشرقية ذات الرمال الممتدة في فواصل منتظمة كما يوجد بها قليل من الروابي الصخرية البارزة مثل: الفهود، والقفي ومخرودان. وهنا وهناك توجد بعض الكثبان الرملية أبرزها عُرق الذياب. وإلى الغرب يمكننا رؤية هضبة الظهرة التي أقمنا مخيمنا عند أسفلها على مقربة من عيون ماء مضيق الصيح.

وبترك مجرى وادي اليتمة إلى جهة اليمين، اتجهنا أسفل الوادي لمتابعة السير في طريقنا القديم الذي تلاشت كل آثاره. ومن المرجح أن هذا المكان شهد هروب أدلاء الرحالة هالفي وهو في طريقه إلى نجران عام ١٨٦٩م إلى أن أنقذته قافلة قادمة من حضرموت. وهذه المنطقة تتجمع حولها أعداد كبيرة من القبائل البدوية بغرض رعي الأغنام. وتكثر هنا الآبار وسط جبال قراء، وشخيبر، والواضح والصحفة، والجرية، والصيح، ومرتفعات أخرى. وبسبب عدم معرفة مواقعها الحقيقية فمن المتعذر الوصول إليها.

وبعد مرورنا بهضبة قدم وعبورنا لمجاري مياه شعيب -مدرك وأوبن التي تلتقي بوادي اليتمة، فإننا نبتعد تدريجياً عن الأخيرة لندخل بقعة من الروابي التي تقع على يمين وادي اليتمة. وهناك ممر واسع قادنا إلى تلك الروابي وعبر مجرى شعيب- اوجه -أحد فروع وادي اليتمة- المؤدي إلى بئر الصحفة عند رأس هذا الوادي في قلب جبل شخيبر مدرك. ووجدنا في هذه البقعة مجموعة صغيرة من الرعاة من قبيلتي يام ودهم تتناثر خيامها على امتداد الوادي. وهناك نرى رجلا وامرأة يسقيان قطيعاً صغيراً من الضأن من بئر ذات فوهة ضيقة وتجويف أسطواني مضفور بالحجر ويبلغ عمقها ٤٠ قامة وتسحب منها كميات قليلة من المياه. وتوقف ركبنا لقضاء وقت القيلولة ،نحن نتفيأ ظل شجر السمر. وأحضر لنا آنذاك أحد صبية قبيلة يام حليباً وعنزاً، فقبلنا الهدية الأولى وصرفنا النظر عن الثانية.

وجاءني بعد الظهر رئيس عشيرة دهم وهو محمد النوفي وذكر لي إنه ومنذ حرب اليمن فإنه قد انضم إلى السيادة والنظام السعودي مناصراً قبيلة يام. وتقع بئر الصحفة في منطقة الصيح. وتتمتع القبائل في هذه البقعة بحرية حركة كبيرة خلال أيام السلم. وقد وجدنا مجموعات من عشائر بوع وعبيدة ويام ودهم شمال بوع فضلاً عن عشائر الصيعر. ولم تكن في جعبة النوفي أخبار هامة سوى أن وفد عشيرة جشم قد تحرك من نجران برئاسة أكبر أبناء سلطان بن منيف للرياض بغية زيارة الملك. وبعد

قضاء وقت القيلولة وجدت أحد الجمال وقد قام بوضع رأسه في فخذي. وبصعوبة بالغة تمكنت من تخليصها منه بعد أن أشعلت عود ثقاب على فكه المنتفخ مما دفعه إلى فك قبضته وسحب رأسه.

يتسم وادي الصحفة بالاتساع وتكسوه الحصوات الخشنة، وفي أعلاه توجد هضب من الجرانيت الأسود مثل: النسر ومعطل وهضاب أخرى - والتي تنحدر منها مجارٍ مائية غزيرة المياه وتصب في اليتمة، بين رابيتين متباعدتين. وخلف هذا الوادي باتجاه الغرب، فإن أودية سلبة وقعيف ونبيع تكون الأجزاء العليا لشريان مصرف المياه الرئيس لليتمة في المنطقة. ولمواصلة رحلتنا يجب علينا أن نختار -مع شيء من الحذر- أرضاً حصوية صلبة تتغير إلى بقعة رملية خلف روابي بردة السوداء أسفل الوادي. وبعد أن عبرنا قناة مائية غير مستوية المجرى وصلنا إلى وادي سلبة. ونلحظ أن بعض أجزاء السطح الرسوبي لقاع الوادي ناعمة وزلقة في حين أن ضفتي الوادي تكسوها كميات كبيرة من الأعشاب الشوكية وبعض الأشجار الكثيفة التي يصل ارتفاعها في بعض الأحيان ١٥ قدما. وفي هذه المنطقة قابلنا ثانية مجموعة من رعاة عبيدة الذين لم يندهشوا هذه المرة لسيارتنا رغم أنهم كانوا أكثر رغبة في التعرف عليها. ومررنا في طريقنا بمجاري وأودية قعيف ونبيع . والأخير تتميز إحدى ضفتيه بوجود شجيرات كثيفة والضفة الأخرى تغطيها كثبان رملية. وأخيراً وصلنا إلى أسفل وادي الصيح الرملي حيث خيّمنا لبعض الوقت. وتحت رابية منخفضة بالقرب من الوادي عثرت على مقبرة صغيرة لم يعرف أهل المنطقة القاطنين حولها تاريخها. وفي تقديري أنها مدفن لضحايا المنازعات القبلية حول موارد المياه في المنطقة. ولا يوجد في هذه المقابر ما يثير الاهتمام سوى إنها كبيرة الأحجام ومبنية من كتل حجرية ضخمة ولبعضها شواهد ولكن تخلو تماماً من النقوش.

وعند الصخور التي تقع على مقربة من ينابيع المياه، عثرت على كميات غير قليلة من المخربشات ونقوش ترجع إلى فجر الكتابة العربية وبعضها يبدو عليه أثر الاهتراء بسبب الظروف المناخية. وعند رأس وادي الصيح يظهر قوس مرتفعات الظهر الشديد الانحدار والذي تتشكل قمته من الجرانيت اللامع. وتحت هذه السلسلة احبلية توجد حفرة من الرسوبيات والحصويات تكون منخفضاً (خزان) ضخماً لتجميع مياه الأمطار لكنها جافة الآن. وتبلغ هذه الحفرة ٣٠ قدماً في العمق وأكثر من ذلك في العرض والطول وتشبه جوانبها التي على هيئة طبقات مدرجات المسرح. ووراء هذا الخزان ينقسم الجبل بواسطة مجرى مائي موسمي. ويرتفع المجرى إلى الداخل على شكل مدرجات صخرية لامعة، ناعمة الملمس بسبب السيول، وتتخلله بعض التشققات والصدوع، بعضها ضحل لكن البعض الآخر عميق بدرجة كبيرة بحيث تتجمع فيه المياه. ومما لا شك فيه أن التنقيب في هذه البقعة سيسلط الضوء على مزيد من المعلومات عن تاريخ هذه المنطقة. وهناك ما لا يقل عن خمسين من طبقات التربة على هيئة دائرة يتراوح قطرها بين ٣٠٠ و ٤٠٠ قدم. وتعج هذه المنطقة بأسراب من حمام الصخر البري (Blue-Rock Pigeons) وأرانب الكوني (Coney-Rabbits) والفار ذي الشعر الذي يشبه السلك (Wire-haired mouse) والذي

يطلق عليه العرب اسم زبابة (Zababa) فضلاً عن طائر الحجل (Partridge) وطائر أبو قلنسوة (Back cap).

وفور وصولنا بقليل زارنا، جعمل، شيخ آل وبران[1] أحد فروع عشيرة آل هندي والذي أحضر معه ثلاثة خراف تكفينا لبقية رحلتنا. ولكن حدث أن أحضر اثنتن من الأدلاء النجديين المرافقين لي خروفين آخرين فرفضت أن أدفع لهما الثمن لأن تصرفهما هذا قد تم دون موافقتي. ولإظهار امتعاضي من هذا التصرف رفضت أن أشارك أعضاء الرحلة العشاء، وتناولت طعام العشاء بمشاركة كل من صالح بن حزيق وحمد القردعي فقط. ونسبة لأن الجبال في تلك المنطقة عالية كالأبراج وتتحدر بصورة تغطي على مخيمنا لا نستطيع معها رؤية النجوم، فقد أخذت جهاز الثيودولايت (لقياس الارتفاعات والمسافات) ونزلت إلى أسفل الوادي لأخذ ملاحظاتي المساحية. وبعد رجوعي للمخيم لم أخلد للنوم إلا في وقت متأخر حيث قضيت وقتاً ليس بالقصير في ترقيم وحفظ الطيور والحشرات التي جمعتها خلال اليوم. وقد هبطت درجة الحرارة في الليل إلى ٥٧ فهرنهايت.

وفي صبيحة اليوم التالي تسلقت قمة الجبل المجاور مباشرة للمخيم، ويبلغ ارتفاعه ٥٠٠ قدم حيث استمتعت بمنظر جميل لسلاسل الجبال التي تشكل مستجمع الأمطار لوادي اليتمة والتي تمتد في الصحراء إلى جبال الفهود والقفل. وبدءاً من منطقة شخيبر والصحفة وحول المنطقة التي أقف عليها الآن، فإن المرتفعات تمتد على هيئة قوس مع وجود نتوءات لروابي تمتد على هيئة فواصل متتابعة كل اثنتين منها تحيط بفرع من الوادي الرئيس. وشمال الوادي الرئيس تقع سلسلة جبال الهضبة المكونة من متاهة من الصخور الشديدة الانحدار والكتل الناتئة. وباتجاه الشمال توجد سلسلة من الجبال تمتد من مجموعة الظهرة الصخرية (ارتفاعها ٣٠٠ قدم) إلى قمم

(١) آل وبران فرع من قبيلة العجمان من يام، وعن أقسام هذه القبيلة راجع، البلادي: بين مكة وحضرموت رحلات ومشاهدات، دار مكة، ط١، ١٤٠٢هـ، ١٢٥-١٢٩. (المراجعون).

جبال طيبة الاسم التي تحجب الرؤية عن قمة جبل ميهر ذي الصخر الرملي. وفي كل مكان في الفجوات بين الجبال بحار من الرمال تهب ذراتها باتجاه الصحراء العظمى. ويلاحظ أن الارتفاع العام للجبال حولنا لا يربو كثيراً عن ارتفاع قمة الهضبة التي نعتليها. ولكننا نجد أن أحد قمم الظهرة يبلغ ارتفاعه ٣٠٠ قدم على الأقل. وهناك نظائر لهذه القمة في مناطق ذات ارتفاع مشابه. ونزلنا من الهضبة سالكين درباً مختلفاً شديد الانحدار لنتمكن من مشاهدة منظر جميل للأخدود. ولكن في أغلب الوقت اتخذنا مسار الأغنام التي أوصلتنا إلى أسفل دون عناء كبير.

وبينما كنا نستعد لمواصلة الرحلة، قدمت امرأة ترعى أغناما لها، فهرع إليها جعمل من عشيرة آل ويران وأحضر منها زبدية من الحليب ونفحته ريالاً نظير تعه. وبعد برهة وجدنا أنفسنا نسير أسفل مجاري أودية الصيح ونبيع والتي دخلنا بعها أرضاً ذات كثبان رملية ثابتة ومنها انسللنا عبر مضيق غربي الهضبة نحو الرابية التي أخذت منها ملاحظاتي في رحلتي الأولى. وإن كنا نسير في أرض معروفة لدينا إلا أن طبيعتها صعبة الاجتياز حتى وصلنا إلى ثمر شقة القورا في الحريرة دون مشقة. وتوقفنا هنا لبعض الوقت قبل أن أتسلق أحد القمم الجبلية لإلقاء نظرة على سحات الطريق الجنوبي المؤدي إلى مدينة نجران. وصعدت الجبل يرافقني جعمل. ولاحظت آثار أحد الغزلان على درب رملي مؤد إلى القمة التي يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ قم. وتتشكل قمة الجبل من هضبتين من الحجر الرملي يفصلهما غور طويل. وتتخلل جوانب الجبل وقمته شجيرات العبل ونبات اللبان والأعشاب الجافة. ومحاور هذا الجبل باتجاه غرب جنوب، غرب وشرق، شمال شرق.

وتبعاً لمعلومات جعمل، فإن رواق (ثمر) القورا والذي يبدأ من أسفل جبال طيبة الاسم على جانبها الشرقي يمتد دونما انقطاع إلى بقعة المندفن عند جنوب جبل صويق على مسافة يومين بالجمال أو حوالي خمسين ميلاً. ويصل هذا الرواق جبل صويق جنوب الفاو عند نقطة تسمى خشيبة في منطقة المندفن. ويقال: إن هناك العديد من

الآبار والأطلال المهجورة كـما وأن المنطقة غنية بالنقـوش. ودون ريب فإن هذا الموقع يمثل مستوطنة لجماعة من الناس ولكنه لا يمثل ألبتة مدينة كبيرة كما يتبادر إلى الذهن. ويجدر بالذكـر أن آبار العويفرة يمكن وصـفها بأنها وبر أو أوفـر عفر كمـا أن القرية ليست بعـيدة من المندفن في ثنيـة طويق. ومما لا شك فيـه أن الموقع يستـحق البحث والتنقيب وهو سـهل الوصول على كل حال. وقـررت أن أذهب في رحلة من نجران إلى هذه المنطقة رغم أن سيارتي ليست بحالة جيدة، وعدلت -بأسف بالغ- في نهاية الأمر عن هذه الفكرة، ومن ناحـية أخرى، فـإن حاكم نجران قـد شاطرني هذه الهم لاسيما وأن روايات البـدو عن هذه الأطلال قد أثارت توقعاته بأنها تحـمل في طياتها اكتشافات مثيرة وعظيمة[1].

وتعد شقة القورا مجرى قـديمًا لوادي العطفين الذي يجري نحو الصحراء باتجاه الشمال بين جبال خليـقا وممر قورا الجبلي حيث تفصله كثبـان قورا الرملية والهضاب المعروفة باسم عروق الأجاشر عن درزنة من الروابي الصغيرة السوداء البارزة على هيئة قوس يمتد من الجنوب الغـربي إلى جهة الشمال الشـرقي من النقطة التي أخذنا عندها ملاحظاتـنا. وهذه الأراضي الرملية تنفـصل عن هضبـة قورا بواسطة ممر مـائي قديم (لوادي العطفين) وهو يجري لأميال قلائل إلى الشـرق قليلاً قبل أن يتلاشى في رمال الصحراء. وروابي أجاشـر بالرغم من أنها غير متصلة، فهـي دونما هذه القمم الجبلية تقذف بحبات من الرمـال على هيئة ريش عندما تهب الرياح الشرقـية المعتدلة في هذه المنطقة. وفيـما عدا قمة جبل ميـهر البارزة والتي لا تبعد كثـيراً عن هذا المكان، فإن

(١) حل مقصـد فيلبي قرية الفاو الأثرية، وقد أشار إليـها فيلبي في رحلته إلى غرب وجنوب الجـزيرة العربية في عام ١٣٧١هـ بصحبـة ليبنز وريكمانز والتي نشـرت الدارة ترجمة لها إلى العربيـة في عام ١٤١٩هـ، وقد تم تكشف الكثيـر من أسرار هذه القرية وأهميتـها السياسيـة والتجارية، على طريق التجـارة القادم من اليمن إلى شمال وشرق الجزيرة، وذلك بسـواعد عدد من منسوبي قسم الآثار والمتاحف بجامعـة الملك سعود. وقد نشر عدد من البحوث عن هذه القرية ضمن مطبوعات الجامعة. (المراجعون).

السمات العامة لتضاريس هذه المنطقة يخفيها سديم من الرمال. ورغم ذلك نجحت في رؤية قمة جبل العر المشرفة على بئر الخضراء والتي سنصلها في اليوم التالي. وبعيداً إلى جهة اليسار، تقع قمة جبل مدرك.

ودخلت الحكومتان (السعودية واليمن) في مفاوضات بشأن الحدود بين البلدين منذ بداية مناقشة ملكية مورد مياه الماوين. وأرسل إبراهيم النشمي -حاكم نجران عام ١٩٣٦م- جامعي الضرائب (الزكاة) لتقدير عدد الجمال والأغنام التي ترد إلى بئر الماوين. وبهذه المناسبة، قام رسله بالتوغل في هذه المنطقة إلى أن وصلوا إلى بئر الحشوة في وادي العطفين حيث وجدوا الرعاة من قبيلة يام. ونجم عن هذه البعثة الموفدة من حاكم نجران قرار وهو أن الماوين تابعة لقبيلة يام وكذلك قمة جبل ميهر.

وبعيداً داخل الصحراء وباتجاه الشمال تقريباً، تقع جبال برقة متشكرة وحولها إلى الشرق قليلاً توجد روابي غراميل ومن ثم هضاب ضبع التي تقبع خلف سلسلة الهضبة. وهناك جبال برقة أثمد التي تقع بيننا وبين سلسلة الجبال الأخيرة. ورجعت ومعي جعمل للمخيم للانضمام لبقية أعضاء الرحلة ومن ثم ركبنا السيارة نحو اجبال التي تحيط بوادي طيبة الاسم. وبعد مسيرة ١٢ ميلاً توقفنا في منتصف النهار لتاول طعام الغداء وللاستراحة تحت ظل شجرة ظليلة في منطقة تبعد قليلاً عن معسكرنا السابق عند مرورنا بهذه المنطقة في بداية الرحلة. وتحركنا الساعة الخامسة بعد الظهر عبر منطقة غير مستوية تكسوها الرمال صوب ممر في هضبة شعير على الضفة اليسرى لوادي العطفين. وبعد برهة دخلنا منطقة رملية تعطلت بها سيارتنا عن الحركة لكن تمكنا من الخروج من هذه الورطة دون عناء كبير. وبعدها واصلنا المسير عبر وادي مدرك فرع طيبة الاسم الذي يجري نحو وادي العطفين إلى أسفل، وأدى الجهد لذي بذلناه وسط الكثبان الرملية إلى إتلاف سيارتنا. وقبل أن نصل إلى معسكرنا في طيبة الاسم بعد الظهر لاحظت أن هناك مشكلة خاصة بزيت السيارة حيث انبعث دخان أسود من العادم (أسطوانة المحرك) في الهواء بواسطة الرياح الشرقية وغطى للكان

براقحة كـريهة. وأثناء توقفنا قام مـحمد بإخـراج الزيت المتسخ وملأ الماكينة بآخـر ما تبقى لنا من زيت يـكفي لإيصالنا إلى مدينة نجـران. وعلى أية حال لم يكن محـمد دقيـقاً في قفل الفتـحة عند أسفل صهـريج الزيت مما أدى إلى انخلاعهـا إما بواسطة الأعشاب في الطريق أو بواسطة الرمل عندما تتعطل السيارة. وقام محمد بقفل الثقب بواسطة نوى التـمر لكن لـم تكن هذه الوسيلة مـجدية ممـا جعلنا نتـوقف بين الحين والآخر لملء صـهريج الزيت بماء للمحـافظة على منسوب الزيت بقـدر الإمكان فوق نقطة التسرب. وقـد كانت هذه الوسيلة الذكيـة من محمد هي أفضـل ما يمكن عمله للمحافظة على الزيت مما أدى إلى وصولنا إلى نجران بسـلام بعد مسيرة ١٦ ميلاً دون أن نحترق مـاكينة السيـارة. والجزء الأخير من هذه الرحلة تم بمحـاورة طرق وعرة في منطقة يجري فيـها مجرى الماءين الذي ينحدر من أعالي الجبـال ليتصل بوادي العطفين الرئيس.

غمرتني فرحـة لا حد لها حينما قدت سيارتي نحـو المخيم في منطقة تكسوها الشجيرات، وعـبر وادي محاط بالصخور عند أسفل جبل مـيهر في آخر ليلة من أيام مغـمراتي في جنـوب الجزيرة والتي بدأت منذ الليلة الأولى ليـوم ٢٦ يوليو، عـندما خيّمنا لأول مـرة على مقربة من هضبـة خرطام الصعرة قبل شـهرين ونصف خلت. واليوم كان ١١ أكـتوبر. وأثناء ذلك سمعت إذاعة القـدس تعلن لعرب فلسطين على وقف أعمال المقاومة حتى يتسنى للورد بيـل وزملائه من أعضاء الوكالة الملكية لدراسة الوضع الذي سينتهي بتقديم تقرير عن الأحداث. والهدنة التي أعلنت كانت مؤقتة إلا أنه كان لتـدخل الحكام العرب في هذه المناسـبة حجـر الزاوية في تاريخ شبـه الجزيرة العربية. وأثناء كتـابتي هذه الأسطر فإن الحكومة البريطانية مـا زالت ومنذ عدة شهور تسعى بدأب من أجل إيجـاد حل لمشكلة المواجهة للقـوى المتنازعة في فلسطين ولكن دون طائل.

بعد تناول طعام عشاء، دعوت زملائي إلى الاستماع (عبر الإذاعة) إلى برنمج للرقص في فندق الملك داود في القدس وكان اليوم السبت، حيث كان الجميع في حالة نشوة واسترخاء مع الإحساس بأنهم سيغادرون صباح الغد إلى الوطن. وعليه فقد قررت أن أكمل ما تبقى من الرحلة بالإبل خاصة وأن سيارتنا سوف تنعطف بشكل كبير نحو أخباش لتتخذ الطريق الطويل الذي سلكته سابقاً. فضلاً عن ذلك فإن رحلة الجمل ستمكنني من رؤية بقاع لم أرها من قبل كما أنه من غير المحتمل أن تصل السيارة بئر الخضراء اليوم التالي. وتأخرت السيارة بالفعل إذ كنا في حاجة للزيت أو بديل له يسمح بالتحرك. وكان السائق محمد له رأي مفاده أن الزيت الناتج من الدهن (الزبد) الذي يستخدم في الطبخ يمكن استخدامه للسيارة. فذهب جعمل واشترى بعض الزبد من الرعاة من قبيلة يام بمبلغ ريالين. وأخيراً وصلت السيارة إلى الخضراء. ومن هنا أرسل جعمل رسالة إلى حاكم نجران يطلب منه أن يرسل لنا زيت سيارة على جناح السرعة.

وفي غضون ذلك تحرك البقية منا بالجمال من المخيم الساعة السابعة والنصف باتجاه وادي المايين نحو النقطة التي تتجه جنوب العطفين. ومن هنا انحرف مسار القافلة باتجاه الشمال الشرقي عبر رواق مكون من عدة روابي منخفضة على جهة اليسار وجبال المايين على جهة اليمين. ويسمى هذا الممر: الضياق تتخلله بعض التلال الحجرية التي يعدها الناس هنا مقابر الكفار أي مقابر حقبة ما قبل الإسلام. وبالرغم من أن هذه المقابر كانت بدائية في تركيبها إلا أنها لم تكن مختلفة عن مقابر اجبانة الكبيرة في العلم الأبيض. ويمكنني القول: إن هذه المقابر تمثل مجهودات للمجتمع البدوي البدائي، ومن المؤكد أن الفنانين هم الذي نفذوا الرسومات التي توجد على قمة جبل ميهر، لتقليد الأساليب المتقنة للمقابر وطقوس الدفن الجنائزية للمجتمع السبئي.

يلاحظ أن مجرى وادي الضياق الذي يتصل بوادي العطفين عبر جبال المايين - كما ذكرنا آنفا- يضيق ويصل اتساعه حوالي ١٠٠ ياردة بين الضفاف الصخرية.

ويزداد المجرى ضيقاً إلى الأمام قليلاً، فابتعدنا عنه باتجاه مضيق جبلي على الجانب الأيمن من المجرى حيث عثرت على عدة مقابر ذات أحجام كبيرة. وتوقفنا برهة عندما انزلق سرجي الذي يعود لأحد رفاقي النجديين، فلاحظت أن هناك مجموعة أخرى تمتد أسفل منحدر رابية منخفضة. وعند حافة هذه الرابية يوجد ممر رملي عبر الجبال على الجانبين. وفي فترة لاحقة عبرنا مجرى وادي شعيب منحة الذي يحتوي على فرع من وادي إمارة. وثمة إشارة هنا وهي أن الأودية في هذه المنطقة أشبه بمتاهة ولغز محير لاسيما وأن البدو لهم أسماء محلية لمراعيهم. لكن بصورة عامة يمكن القول: إن لفرعين الرئيسين اللذين يكونان وادي العطفين -الاسم يوحي بوجود قناتين- هما حشوة وإمارة، والأخير أطول وأكثر أهمية بينما نجد أن هناك العديد من المسيلات المائية تنحدر من المرتفعات لتصب في هذين الواديين. وهناك وادي منحة الذي تحيط به أشجار الأكاسيا ونباتات أخرى. ويجري هذا الوادي باتجاه جنوب غرب - شمال شرق من جبل إمارة إلى خرطام الصعرة. ويتصل بهذا الوادي مجرى مائي آخر يسمى «شحا» والذي عبرناه للوصول إلى مرتفعات علّوب المرتفعة نسبياً عن الهضاب المحيطة بها ـالمكون للضفة اليمنى لواد بنفس الاسم، والآخر عبارة عن متراس في مواجهة بحار الرمال العظيمة للربع الخالي.

وهناك طريق قصير شديد الانحدار يبدأ من هذه الهضبة إلى عقبة علوب ومن ثم إلى طرف الصحراء الموحشة. وتوقفنا في هذه المنطقة لبعض الوقت لتفحص المقابر التي تنتشر على طرف الهضبة. وهناك منشأة حجرية بارزة وسط هذه المقابر. والجزء الأعلى من هذه المنشأة مهدم في حين أن قاعدتها مربعة ومشيدة من أحجار موضوعة بشكل متقن ويبلغ طول كل من أضلاعها سبعة أقدام. ونحن على هذه القاعدة عثرنا على نقش مهشم وهو الوحيد الذي عثرنا عليه في المنطقة الممتدة من هذه البقعة وإلى المايين. وعند منتصف المسافة أمامنا يوجد وادي نجران المخضر الذي يجري باتجاه الشمال الشرقي نحو الصحراء حيث يتلاشى هناك. وبين هذا الوادي (نجران) والمنطقة

التي نحن فيها الآن، يوجد خليج واسع من الرمال شبه محاط بالأطراف الخارجية للجبال المجاورة -تنصاب، زفين وجبال أخرى- والتي تعلو دلتا صلة. ويتجه صوب الأخير وادي الفرع المنحدر من مرتفعات وائلة، وباتجاه الشمال يمكننا رؤية الجروف الصخرية المنخفضة لوادي حبونا خلف هضبة تصلال وروابي بني أكلب. وفي غياب جعمل مع السيارة طلب كل من محمد بن قنيبر وأحد الجمالين من عشيرة آل هتلي من سالم بن حيران أن يقود الركب نحو منطقة الخضراء. ورغم أن كليهما يعرف الطريق إلا أنهما لم يستطيعا تحديد أي علامة واضحة على امتداد الطريق أمامنا. وخلال معظم اليوم، فإن أفراد عشيرة آل الهندي كانوا يمشون راجلين أمام الجمال لإعطائها راحة من عناء الأحمال والسفر. ورغم وعثاء السفر، فإنهم قد أمضوا شهرين كاملين وهم يتمتعون بوجبات طعام منتظمة ودسمة لم يعهدوا مثلها من قبل.

وبخروجنا من الطريق الواقع طرف الدلتا، وجدنا أنفسنا نجتاز طريقاً رملياً يقع بين عقبات صخرية على يسارنا وهضبة عالية ذات لون برتقالي على يمين خط سيرنا وتقع خلفها هضبة عقط وفي غضون ذلك كانت هناك مجموعة من بدو آل هندي من عشيرة أهل منصور من التابعين إلى رِجْلاَ في وادي نجران تعبر المنطقة في طريقها إلى الماين. وتتكون هذه القافلة من عشرين جملاً. وأحد هذه الجمال عليها محفة -تعرف هنا باسم مظلة لكن تعرف أيضاً باسم قين في الشمال-. وكان رجال القافلة يسيرون على الأقدام ويتبادلون معنا التحايا مثل «الله يجازيك، والله يعطيك العافية». وتدريجياً خرجنا من طريق الرواق الجبلي إلى منطقة رملية واسعة وواصلنا المسير إلى أن بغتا رابية الرزيزة الصخرية غرب هضبة زفين حيث توقفنا لتناول الغداء ولأخذ قسط من الراحة. وانتهزت هذه السانحة لعمل مسح للمنطقة التي حولنا. ويلاحظ أن قمة جبل العر يقع باتجاه الشمال الغربي في حين أن هضبة تصلال تقع خلفها باتجاه الشمال مباشرة. وعند الجهة الغربية، خلف جبل صلة الثار تقع سلسلة جبال نجران بلتلة والكبيرة في أم خرق عبلة والمرحا وتوقفنا لقضاء وقت القيلولة عند كهوف منطقة

الرزيزة الجبلية الجرانيتية حيث كانت جمالنا ترعى أعشاب النصي والعلقي بينما كنا نأخذ قسطاً من الراحة. وتبلغ درجة الحرارة في الكهوف ٨٦° درجة فهرنهايت في حين أن الجو يبدو بارداً طيباً تحت ظل الكهوف.

واستأنفنا مسيرنا الساعة الثانية بعد الظهر نحو النقطة الأولى التي تحركنا منها في بداية الرحلة عند بئر الخضراء. وهناك وادي صلة الذي توجد على مقربة منه رابية صغيرة لكنها أصغر من رابية الرزيزة وهو يقع مباشرة أمامنا. وتتميز منطقة هذا الوادي بوجود بحار هائلة من الرمال، تمتد من زفين وتتطور في شكل وسائد متحركة بارتفاع خمسة عشر إلى عشرين قدماً. وهناك تظهر خطوط مرتفعة من الرمال أجبرتنا على تغيير مسارنا ونحن نتحرك باتجاه تنصاب. فضلاً عن ذلك فقد تخطينا عدة عقبات في وادي صلة تمثلها شجيرات العبل فوق كثبان الرمال العالية والشجيرات الخفيفة الأخرى. وإلى اليسار من موقعنا يُرى وادي الفُرع وهو ينحدر من الجروف الصخرية الجرانيتية. وخلف الوادي مباشرة يقودنا سهل ذو رمل خشن إلى وادي الفرع الذي تكسوه أشجار الأكاسيا. وتحت ظلال أحد هذه الأشجار، وجدنا أحد الرعاة ومعه زوجته. وكان لدى الزوج صقر وكلب سلوقي لمساعدته في الصيد بينما كانت زوجته ترعى خرافها.

وإلى اليسار من موقعنا يوجد جدول يخترق جبال العر والهضب وبعض المرتفعات الأخرى الجرانيتية الداكنة. ويكون هذا الجدول ما يشبه الرواق في المنطقة الممتدة من روابي يعلين وإلى وادي نجران أسفل المناجم. وعند وصولنا جبل العر اتجهنا نحو صخرة حدودية ذات فتحة عند طرف الجبال الشمالية، ولكن سرعان ما وجدنا أن الطريق مقفل بواسطة الجلاميد المتناثرة والتي تكون حاجزاً أمام وادي نجران. وفي أحد هذه الجلاميد عثرت على مجموعة من النقوش الثمودية والعربية الحديثة لكن معظمها متآكل بحيث يصعب نسخها. واتجهنا ناحية الشمال الشرقي حيث عثرنا على مخرج على هيئة ممر عبر كسر بعض الجلاميد الصخرية. وتوجب علينا أن نسير على

الأقدام وأن ندع جمالنا تعبر هذه العقبة على حركة التفافه حول الممر. وبعد رحلة طويلة وصلنا إلى بئر مهجورة الساعة الخامسة بعد الظهر حيث توقفنا لقضاء المساء عند مأوى صخري من حجر الجرانيت. وهو المكان نفسه الذي بحثنا فيه عن النقوش قبل أحد عشر أسبوعاً. وكنا قد أرسلنا رسالة إلى نجران لإحضار زيت لسيارتنا التي قطعت حوالي ٤٦ ميلاً من المايين عبر طريق أكثر مباشرة من ذلك الذي سلكناه في بداية الرحلة. وكان الجو طيبا للغاية في الليل حيث بلغت درجة الحرارة ٥٧° فهرنهايت مقارنة بشهر يوليو الذي وصلت فيه درجة الحرارة إلى ٧٠° فهرنهايت. وثمة إشارة هنا وهي أن زملاءنا من أفراد القافلة الذين أمامهم رحلة طويلة للوصول إلى نجران سوف يرتاحون غداً من وعثاء السفر ويذهبون إلى أسرهم أو إلى زوجاتهم وأطفالهم بعد أن يغتسلوا من أوساخ السفر ويلبسوا ملابسهم النظيفة. وتحركت قافلة الجمال التاسعة التاسعة صباحاً نحو نجران، وتخلفت وبمعيتي صالح بن حزيق وحمد القردعي ومحمد عن هذا الركب لنلحق بهم عندما نتمكن من ذلك.

وجاءت مجموعة من الرعاة -امرأة واحدة ومجموعة من الرجال- لتسقي أغنامها وخرافها في البئر التي تقع على مقربة من مخيمنا. وبعد برهة قليلة وصل زوجان. وكانت المرأة فتاة ممتلئة الجسم، مفعمة بالصحة وترتدي ثوباً خارجياً ذا الهيئة، فضفاضاً بحيث يكشف عن تفاصيل جسمها أثناء عملها. وبعد فترة وجيزة امتلأ المكان بالناس وهم يمتحون الماء من البئر للسقيا وكانت البنات في حالة مرح وحبور كثير. وفي غضون ذلك وصل زيت السيارة الساعة العاشرة والنصف صباحاً حيث تحركنا باتجاه نجران وصوت راعي الأغنام يشنف آذاننا بأهازيجه: ياهب، يهيبا- هيبا- هيبا- ياهيبا - إوب- أوب هيا- هيا- إوب، هيا، هيا. والآن انتهى فصل من رحلتنا العظيمة. وبالنسبة للأيام القادمة سوف ننعم بضيافة نجران لنجهز بعدها أنفسنا لأعمال قادمة.